العبرة فى أُحُد

كانت الهزيمة فى أحد درسًا ضروريًا للمسلمين

إن الذى يستعرض مواقف غزوة أحد، ويتأمل ما كان فيها من الحوادث والصور، يعتقد أنها كانت شيئًا لا بد أن يكون، ودرسًا كان لا بد أن يتلقاه المسلمون وهم فى أول عهدهم بالقتال فى سبيل الله. فقد "كانت الهزيمة فى أحد أول هزيمة تصدم المسلمين الذين نصرهم الله ببدر وهم قليل، فكأنما وَقَر فى نفوسهم أن النصر فى كل موقعة هو الأمر الطبيعى، الذى لا يتخلف أيًا كانت الأحوال والظروف.. ومهما يكن تصرفهم وبُعدهم عن أسباب النصر الحقيقية، من استعداد وطاعة، وتغلُّب على شهوات النفس ومطامعها، وثبات للشدة واتجاه إلى الله"[1]. فأراد الله سبحانه أن يعلم عباده المؤمنين أن النصر لا يكون إلا لمن يأخذ بأسباب النصر، وأن الهزيمة لا تكون إلا على من يأخذ بأسباب الهزيمة، وأن الله لن يتخلى عن المؤمنين

---

(١) فى ظلال القرآن.

ما داموا يخلصون له النية والعمل؛ فإذا ما شغلهم عنه شاغل من أعراض الحياة الدنيا، فإنه يتخلى عنهم بمقدار ما يشغلهم من ذلك الشاغل، ولا يكون معهم حتى يكونوا معه بقلوبهم وحواسهم وظاهرهم وباطنهم.

خرج المسلمون إلى أحد وهم على غير اتفاق

لقد تعددت فى هذه الغزوة الصور والألوان، وتموجت حوادثها تبعًا لتموجات القلوب والنيات.. فقد خرج المسلمون لها وهم ـ فى ظاهر أمرهم ـ جمع ملتئم. يتلهب حماسة إلى لقاء العدو، ويفيض شوقًا إلى الموت فى سبيل الله. فلما كادوا يقطعون بعض الطريق حتى ظهر الخلاف بينهم ودب الشقاق فى صفوفهم، فرجع عبدالله بن أبىّ بثلث الجيش، فتصدع بذلك البناء الملتئم، وتزلزلت أركانه حتى كاد يسقط منه شطر آخر، لولا أن تدارك الله المؤمنين برحمته، فعصم بنى سَلِم وبنى حارثة من الشقاق الذى أوشك أن يكون: ﴿إذْ همّتْ طائفتان منكم أن تَفْشَلا والله وليُّهما وعلى الله فَلْيتوكّل المؤمنون﴾[1]. وإذن فقد سار المسلمون بعد ذلك إلى المعركة، وهم على حال أشبه ما تكون بحال قريش حين ساروا إلى معركة بدر، بعد أن تخلف

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٢.

obeikandi.com

عنهم بنو زهرة وبنو عدى فى الطريق. نعم إن الله كشف للمؤمنين بذلك عن بعض خفايا القلوب المريضة فى جماعتهم، ووقاهم بذلك شرًّا كثيرًا؛ ولكن الفَعلة فى ذاتها كانت ظاهرة من ظواهر الضعف، وبادرة من بوادر الهزيمة، وقد أوشكت عَدْوَاها أن تسرى فى صفوف الجيش، ولكن الله سلَّم.

خالف الرماة أمر الرسول ﷺ

فلما التحمت المعركة بدت ظاهرة أخرى من ظواهر الضعف، فى تنازع الرماة وتهافتهم على الغنيمة، ومخالفتهم أمر رسول الله ﷺ برغم تحذيره لهم ألا يغادروا أماكنهم. ومما لا شك فيه أن الطاعة هى قوام النظام فى الجندية، وعنوان الإخلاص فى الجندى؛ وعلى أساس الطاعة يضع القائد خطته ويحدد موقفه من المعركة، فإذا لم تكن هناك طاعة لم تكن هناك خطة، لأن القائد إنما يضع خطته بعد أن يقدر كل الظروف التى تحيط به؛ وعلى أساس هذا التقدير يرسم خطوات السير التى يسد بها كل ثغرة، ويضمن بها تحقيق النصر على عدوه. وهو حين يضع خطته ويرسم خطوات السير فيها، إنما يضعها وهو موقن أن كل خطوة فيها ستنفذ كما رسمها هو؛ فإذا ما انعدمت الطاعة فقد فسدت الخطة بلا شك، وصار الأمر فوضى لا تُؤمَن عواقبها. وهذا ما حدث فى وقعة أحد؛ فقد

خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ وهو القائد الأعلى، وخرجوا على أميرهم عبد الله بن جبير وهو قائد كتيبتهم، واندفعوا مع رغباتهم فى احتياز الغنائم؛ ففسدت بذلك الخطة التى وضعها القائد، ورتب خطواتها على أساس الطاعة التامة من الجنود. فكان عصيان الجنود سببًا فى فساد الخطة، وكان فساد الخطة سببًا فى اضطراب الجيش، وكان اضطراب الجيش سببًا فى تحول النصر إلى هزيمة.. وقد أوشكت هذه الهزيمة أن تكون ساحقة، لولا رعاية الله ولطفه.

ما الذى دفع الرماة إلى هذه المخالفة؟ أهو التمرد والخروج على طاعة القائد؟ أم هو الحرص على اغتنام الغنائم وجمع الأسلاب؟ أم هو خطأ التقدير لظروف المعركة وملابساتها؟.. إن الروايات كلها مجمعة على أن الرماة عَصَوْا أمر أميرهم عبدالله بن جبير، وأن أميرهم عبدالله حذرهم عاقبة الخلاف، وذكّرهم وصية الرسول لهم وتحذيره إياهم؛ ثم هى مجمعة كذلك على أنهم لم يتركوا أماكنهم إلا حين رأوا الأعداء منهزمين، ورأوا إخوانهم قد عكفوا على الغنائم والأسلاب يجمعونها وهم آمنون.. ويذهب بعض الرواة إلى أن الرماة لم ينزلوا ـ حين نزلوا ـ مخالفين عن أمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولكنهم تأوّلوا قوله، وظنوا أنه ما دام العدو قد انهزم، فلا بأس من

مغادرة المواقع والاشتراك فى جمع الغنائم.. على أنه مهما يكن تفسير هذه الظاهرة فقد وصفها القرآن بأنها معصية، وظاهرة من ظواهر الضعف البشرى لابست هذه القلوب المؤمنة، فصرفتها عن الهدف الأسمى الذى جاءت تقاتل من أجله، إلى غرض تافه من أغراض الحياة الدنيا، فكان الجزاء من جنس العمل: ﴿فَأَثَابَكُم غَمًّا بغم لكيْلا تَحزَنوا عَلَى ما فاتَكُم ولا ما أصابَكُم والله خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾[1].

وهكذا أدرك المؤمنون سُنَّةً من سنن الله فى خلقه؛ فعرفوا أن النصر لا يكون إلا بأسبابه، وأن الهزيمة لا تكون إلا بأسبابها، وأن الله يكون مع المؤمنين حين يكونون معه بكل نفوسهم، ويتخلى عنهم حين يشغلون عنه بشاغل ما.. وهاهم أولاء يرون رأى العين أن الله قد نصرهم على العدو حين جعلوا همهم قتل العدو؛ فلما انصرفت همتهم إلى جمع الغنائم تخلى الله عنهم، فكانت الكرّة والهزيمة عليهم.. ﴿ولَقَد صَدَقَكُم الله وَعْدَهُ إذْ تَحُسُّونَهُم بإذْنه حَتَّى إذا فَشلتُم وتَنازَعتُم فى الأمْرِ وعَصَيْتُم مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُم ما تُحِبُّونَ مِنكم مَن يُرِيدُ الدُّنيا ومِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَة ثُمَّ صَرَفَكُم عَنْهُم ليَبْتَلِيَكُم وَلَقَد عَفَا عَنكُم والله ذُو فَضْلٍ عَلى المؤْمِنين﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٣.   (٢) سورة آل عمران الآية ١٥٢.

تفرق المسلمون .وشغلوا بأنفسهم

وظاهرة أخرى من ظواهر الضعف فى صفوف المؤمنين كشفتها هذه المعركة، ذلك أنهم لم يتضامُّوا ويتكتّلوا حين أحاط العدو بهم، بل تفرقوا فى كل وجه حتى قيل إن بعضهم فرّ إلى المدينة فلم يمنعه من دخولها إلا الحياء، وحتى شغلهم أمر أنفسهم عن أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فتركوه فى المعركة وحيدًا يعانى وطأة العدو، فى قلة من الرجال ما كانت لتغنى عنه شيئًا لولا رعاية الله.. ففى هذه الغمرة التى كان يجب أن يحيط الجيش فيها بقائده ورسوله. تخلى الجيش عن قائده ورسوله وشغل بأمر نفسه، حتى أوشكت أن تقع الكارثة بموته، صلى الله عليه وسلم. ومن العجيب أن يَغفُل المسلمون عن رسول الله ﷺ فى هذه الغمرة، وهو يلاحقهم بصوته ويتابعهم بندائه، وهم ممعنون فى الهرب، مشغولون بأمر أنفسهم، لا يلتفتون إلى شىء مما عداهم : ﴿إذ تُصْعِدون ولا تَلْوُون على أحدٍ والرسولُ يَدْعُوكم فى أُخْراكمْ﴾[1].. ففى هذه العبارة الموجزة رسم القرآن للمؤمنين مشهدًا كاملا للفرار، يصور "حركتهم الحسية وحركتهم النفسية معًا؛ فهم مُصعدون

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٣.

هرَبًا فى اضطراب ورعب ودهش، لا يلتفت أحد إلى أحد من الهول، ولا يجيب أحد داعى أحد من الذعر، والرسول يدعوهم وهم مصعدون"[1] فلا يلتفتون إليه ولا يستمعون له.

لقد كانت هذه زلة من زلات الضعف البشرى مرت بالمؤمنين فى تلك الساعة الحرجة، فأراد الله أن يكشفها للمؤمنين حتى يعاينوها ويلمسوا آثارها، ثم يغفرها لهم بعد ذلك كيلا يعودوا لمثلها: ﴿إِنَّ الَّذِين تَوَلَّوْا منكُم يَوْمَ التَقَى الجَمْعَان إنما اسْتَزَلَّهم الشَّيطانُ ببعضِ ما كَسبوا ولقد عَفَا الله عنهم إنَّ الله غفورٌ حليمٌ﴾[2].

كف بعض المؤمنين عن القتال حين سمعوا بموت رسول الله

وظاهرة أخرى من ظواهر الضعف، كشفتها هذه الواقعة حين شاع نبأ موت رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فقد كف بعض المؤمنين عن القتال وألقَوْا بأيديهم[3]، وقال بعض الذين كفوا عن القتال: "ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبى، فيأخذ لنا أَمَنَةً من أبى سفيان!.. ياقوم، إن محمدًا قد قتل، فارجعوا

---

(1) فى ظلال القرآن.

(2) سورة آل عمران الآية ١٥٥.

(3) ألقوا بأيديهم: استسلموا للهزيمة.

obeikandl.com

إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم".. كأنما ظنوا أنهم قد أخطأوا بحضورهم إلى القتال، وأن الحزم كان فيما فعله ابن أبى من الرجوع؛ وكأنما جاءوا إلى القتال، لا عن عقيدة يدافعون عنها ويموتون فى سبيلها، بل جاءوا إليه متورطين، إما طَوَاعيةً لأمر الرسول وتحرجًا من مخالفته، وإما وفاء بالعهد الذى أعطَوْا على أنفسهم بالدفاع عنه؛ فلما مات ذهب السبب الذى من أجله يقاتلون، فلم يبق للقتال محل.

وهو خطأ كان لا بد أن يعرفه المسلمون؛ فما كان الهدف الذى يدافعون عنه هو محمد، ولا كان الغرض الذى يقاتلون من أجله هو الرسول؛ إنما كان الهدف الأول والأخير هو نصر دين الله وإعلاء كلمته، وهى العقيدة التى آمنوا بها وخرجوا للدفاع عنها. لما كان يجدر بالمؤمنين أن يُلقُوا بأيديهم ويستسلموا للهزيمة مهما كان الأمر، بل كان عليهم أن يقاتلوا عن عقيدتهم حتى يُعْذِروا إلى الله من أنفسهم؛ فإنهم إنما يدافعون عن عقيدة فى دين الله لا فى شخص الرسول؛ فإذا كان الرسول قد مات فإن الله حى لا يموت: ﴿وما مُحمدٌ إلا رسُولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسل أفإنْ ماتَ أو قُتل انقلَبْتم على أعقابِكم؟ ومَنْ يَنْقلبْ على عَقِبَيْه فلن يَضرَّ الله شيئًا وسَيَجْزى الله الشاكرين﴾[1].

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

وطائفة قد أهمتهم أنفسهم

وظاهرة أخرى من ظواهر الضعف سجلتها معركة أحد؛ ذلك أن فريقًا من المسلمين لم يكونوا قد آمنوا بعد بمبدأ التضحية فى سبيل العقيدة، ولم يكونوا قد أدركوا بعد سُنن الله فى الكون؛ وكأنما كانوا يقيسون صلاح العقيدة وفسادها بما يصيب أتباع العقيدة من نصر أو هزيمة، أو كانوا يظنون أن صلاح العقيدة وحده كَاف لأن ينصرها، ولو لم يأخذ أصحابها بأسباب النصر، فلما هُزِموا فى هذه المعركة أخذوا يتساءلون: ﴿هَلْ لنا من الأمْرِ من شىء﴾؟ كأنما يعبرون بهذا عما يخامر نفوسهم فى شأن هذه العقيدة، أهى عقيدة صالحة ودين حق؟ فإذا كانت كذلك فلم كان هذا القتل وهذه الهزيمة؟

وقد صور الله حال هذه الطائفة وصحح لها خطأها بقوله سبحانه: ﴿وطائفةٌ قد أَهمَّتْهم أنفُسهم يَظُنون بالله غيرَ الحق ظَنَّ الجاهليَّة يقولون هل لنا منَ الأمرِ منْ شىء قل: إنّ الأمرَ كلَّه لله يُخْفُون فى أنفُسهم ما لا يُبْدُون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىءٌ ما قُتِلنا هٰهنا، قل: لو كنتُم فى بيُوتكم لَبرزَ الَّذين كُتِبَ عليهم القتْلُ إلى مَضاجعهم وليَبْتلىَ اللّهُ ما فى صُدوركم وليُمَحِّص ما فى قُلوبِكم واللّهُ عليمٌ بذات

الصدور﴾[1].. فكشف الله بهذا عن خبيئاتهم؛ وعلّمهم أن النصر والهزيمة لا صلة لهما بصلاح العقيدة أو فسادها، وأن الموت والحياة لا صلة لهما بالحرب أو بالسلم؛ إنما هى سنن مرسومة، وآجال معلومة؛ فمن أخذ بأسباب النصر كان له النصر، ومن جاءه أجله سعى إلى مضجعه من الأرض طائعاً، ليموت حيث كتب الله له أن يموت.

بلاء حمزة

على أنه كانت إلى جانب هذه الصور صور أخرى، تنبئ عن القوة والبطولة وصدق الإيمان؛ فقد كان حمزة بن عبد المطلب يخوض فى هذه المعركة كما يخوض الجمل الأوْرَق[2]، يَهُدّ الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شىء، حتى قتله وَحْشِىّ؛ ذلك العبد الحبشى الذى خرج من مكة، وهدفه الأول والأخير أن يقتل حمزة، ليشترى به حريته؛ فما زال يترصده ويلاحظه حتى انتهز غفلة منه، فسدّد إليه حربته ثم رماه بها، فوقعت فى ثُنّته[3] حتى خرجت من بين وَرِكَيْه؛ فلما رآه قد أسلم الروح

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٤.

(٢) الذى يجمع لونه بين البياض والسواد، ولعل هذا النوع من الجمال كان معروفاً بالقوة.

(٣) الثنة : ما بين السرة والعانة.

ذهب إلى حربته فانتزعها منه، ثم رجع إلى العسكر فقعد فيه، لا يبغي سواه شيئاً آخر.

بلاء أبي دُجَانة

وكان أبو دجانة مثلا للبطل الواثق بنفسه، المُدِلّ بقوته وشجاعته؛ فقد روى أن رسول الله ﷺ صفَّ أصحابه للقتال، ثم أخذ سيفاً فجعل يعرضه على أصحابه قائلا: «من يأخذ هذا السيف بحقِّه»؟ فقال أبو دجانة: وما حقُّه يا رسول الله؟ قال: «أن تضرب به فى العدو حتى ينحنى». فقال أبو دجانة: أنا يا رسول الله.. فأخذه؛ وكانت له عصابة حمراء تسمى عصابة الموت، وكان إذا اعتزم القتال عصب بها رأسه؛ فأخرج عصابته فاعتصب بها، ثم أمسك السيف فجعل يتمايل به أمام الصفوف فى تخايل وعُجْب؛ ويقول منشداً:

«أنا الذى عاهدنى خليلى ... ونحن فى السَّفْح لدى النخيل
ألَّا أقوم الدهرَ فى الكَيُّول[1] ... أضربْ بسيفِ الله والرسول»

فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنها لَمِشْيَة يُبْغِضُها الله إلا فى مثل هذا الموقف».. ثم نزل إلى المعركة فأبلى فيها

(١) الكيول: مؤخرة الصف.

أحسن البلاء، ودافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الدفاع؛ فكان مثلا عالياً فى التضحية والفداء.

بلاء أنس بن النضر

وكان أَنَسُ بن النَّضر مثلا للمؤمن الصادق، الذى يَفنى فى عقيدته ويحسن الدفاع عنها؛ فقد روى أنه مر بنفر من المؤمنين وهم قعود قد ألقَوْا بأيديهم، فقال: «ما يقعدكم»؟ قالوا: «قُتل رسول الله، صلى الله عليه وسلم»! قال أنس: «فما تصنعون بالحياة من بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه»! ثم جعل يقاتل حتى قتل، فوُجد به بِضْعٌ وثمانون ضربة، قد شُوِّهت بها هيئته واختلطت معالمه، حتى ما استطاعت أخته أن تستدل عليه إلا ببنَانه.

بلاء سعد بن الربيع

وقاتل سعد بن الربيع حتى أُثْخِن بالجراح؛ فمر به بعض الصحابة وهو يجود بنفسه، فقال له: «أما علمت أن محمداً قد قتل»؟ فقال سعد: «أشهد أنَّ محمداً قد بلغ رسالة ربه؛ فقاتل عن دينك، فإن الله حى لا يموت»!

بلاء عبد الله بن جحش

وضرب عبد الله بن جحش مثلا عالياً في تمنّي الشهادة والرغبة في ثواب الآخرة؛ فقد روى أنه تمنّى على الله أن يموت شهيداً، وأن يمثل الأعداء به غاية التمثيل، فقال: «اللهم إنى أقسم عليك أن نلقى العدو غداً، فيقتلونني، ويبقُرون بطني، ويمثلون بي؛ فألقاك مقتولا قد صنُع هذا بي، فتقول: فيم صنع بك هذا؟ فأقول: فيك».. فقاتل حتى قتل، ووُجد وقد صنع به الأعداء ما تمنى.

دروس عالية يتلقاها المسلمون عن رسول الله في هذه الغزوة

ولقد ألقى رسول الله ﷺ على أصحابه في هذه الغزوة دروساً عالية في احترام الشورى، وفي صدق العزيمة، وفي ثبات القلب، وفي احتمال الأذى والعفو عن المسيء.. فقد خرج، صلى الله عليه وسلم، لهذه الغزوة وهو كاره للخروج، ولكنه خرج نزولا على رأى أصحابه. فلما أحس أصحابه أنهم قد استكرهوه أرادوا أن ينزلوا عند رأيه، فأبى أن يتردد في الخروج بعد أن عقد العزم عليه؛ «فإن للمرء أن يتريث ويستشير

ويقلب أوجه الرأى ما يشاء، أما حين ينتهى من الاستشارة والتفكير، ثم يختار خطة ويعتزم، فلا سبيل بعد ذلك إلى تردد ولا إلى إعادة الأخذ والرد؛ وليمض فيما اعتزم، فإن العودة إلى تقليب وجوه الرأى بعد هذا إنما هى ضعف وتردد، يُفْضيان إلى التأرجح الدائم الذى لا ينقطع»[1].

وإن فى صموده، صلى الله عليه وسلم، للعدو فى هذه الساعة الحرجة؛ وفى ثباته والمسلمون من حوله يفرون إلى حيث ينجو كل بنفسه من الموت؛ وفى دعائه للمسلمين يشجعهم ويقوى قلوبهم، وهم لشدة ما يرون من الهول لا يسمعون ولا ينظرون؛ وفى تماسكه والخطر يحيط به من كل جانب، والأعداء مُتَكأكئون عليه يريدون أن يشفوا بقتله غليل أنفسهم.. إن فى كل هذا لدليلا على مبلغ ما آتاه الله من شجاعة القلب، ورباطة الجأش، وقوة اليقين بالله عز وجل.

وإن فى هذه: الصورة التى رسمها القرآن له وللمسلمين، وفيهم الأبطال والصناديد وأولو البأس والقوة.. هم فى فزعهم وجزعهم مُصْعدون لا يلوون على شيء، وهو فى ثباته ويقينه يدعوهم فى أخراهم ويُهيب بهم ألا يفروا.. إن فى هذا لَفَرْقاً

---

(١) فى ظلال القرآن.

بعيد المدى بين شجاعة وشجاعة، وبين قوة وقوة، وبين يقين ويقين.

وعلى رغم ما أصابه، صلى الله عليه وسلم، من الجراح بسبب فرار المسلمين عنه، لم يَعْنُف عليهم ولم يلم منهم أحداً؛ بل عفا عما كان من تقصيرهم، وجعل يواسيهم ويَشُدُّ من عزائمهم، ويقول لهم: «لن ينالوا منا مثلها حتى نستلم الحجر».. وقد أثنى الله، عز وجل، عليه فى ذلك إذ يقول سبحانه: ﴿فَبِما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظًّا غليظَ القلب لانْفَضُّوا من حَوْلك فاعْفُ عنهم واسْتغفِرْ لهم وشاوِرْهُم فى الأمْر﴾[1].

كانت هذه الغزوة تجربة قاسية تعلم المسلمون منها دروساً كثيرة

لقد كانت هذه الغزوة تجربة قاسية، «وامتحاناً ثقيل الوطأة، مَحَّص السرائر، ومزَّق النقاب عن مخبوئها، فامتاز النفاق من الإيمان؛ بل تميزت بها مراتب الإيمان نفسه، فعُرف الذين ركلوا الدنيا بنعالهم فلم يعرِّجوا على مطمع من مطامعها، والذين مالوا إليها بعض الميل، فنشأ عن أطماعهم التافهة ما ينشأ عن الشرر

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

المستصغر من حرائق مروِّعة»[1] ﴿وما أصَابكُم يومَ الْتقى الجَمْعان فبإذنِ الله وليَعْلَمَ المؤمنين * وليعْلَم الَّذين نافقُوا وقيل لهم تعالَوْا قاتلُوا فى سبيل الله أو ادْفعُوا، قالوا : لو نعلمُ قتالاً لاتّبعْناكم هم للْكفرِ يَوْمَئذٍ أقربُ منهم للإيمان، يقولون بأفْواهِهم ما ليس فى قلوبهم واللّهُ أعلمُ بما يكْتُمون﴾[2].

لقد استفاد المسلمون منها دروساً كثيرة، وعرفوا منها مواضع ضعفهم وقوتهم، وتعلموا بالتجربة ما ينبغى أن يكون عليه المجاهدون فى سبيل الله، من صدق الإيمان بالعقيدة التى يؤمنون بها، ومن الإخلاص والتجرد لها من كل شاغلة من شواغل الدنيا، ومن الثبات والصبر على لقاء العدو، وعدم التَّضَعْضُع والتخاذُل حين يشتد البأس وتثقُل الوطأة ويحمى الوطيس، ومن التوجُّه إلى الله وحده والاعتماد عليه فى استمداد المعونة والنصر.. وقد ضرب الله مثلا لهذا النوع من المجاهدين الصادقين فى قوله سبحانه : ﴿وكأيِّن من نَبىٍّ قاتلَ معهُ رِبِّيُّون كثير فما وَهَنوا لما أصابَهم فى سَبيل اللهِ وما ضَعُفُوا وما استكانوا والله يُحبُّ الصَّابرين * وما كان قَوْلَهم إلا أن قالوا ربَّنا اغفرْ لنا ذُنوبَنَا وإسرافنَا فى أمرنا وثَبِّتْ أقدامنَا وانصرْنا على القوم الكافرين * فآتاهم اللّهُ ثوابَ الدُّنيا وحُسنَ ثوابِ الآخرة

---

(١) فقه السيرة.

(٢) سورة آل عمران آيتا ١٦٦، ١٦٧.

والله يحبُّ المحسنين﴾[1].. فهؤلاء وأمثالهم من المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم ونفوسهم لله، هم الذين يستحقون نصر الله وتأييده وتسديده.

معركة فلسطين ومعركة أحد

ولعل أقرب المعارك إلى أذهاننا شبهاً بهذه المعركة «معركة فلسطين»، فقد تعلمنا منها كثيراً من الدروس، وعرفنا مواضع ضعفنا وقوتنا، وأمانتنا وخيانتنا، وتماسُكنا وتخاذلنا؛ ولمسنا من حالنا كل ثغرة كشفتها لنا هذه التجربة، فأخذنا نعالجها ونعمل على سدادها: ﴿وعَسى أن تَكرهوا شيئاً وهُو خيرٌ لكم وعَسَى أن تُحبُّوا شَيْئاً وهو شرٌّ لكم واللّهُ يعلَمُ وأنتمُ لا تعْلمُون﴾[2].

كان ما نزل من القرآن فى غزوة أحد تعزية وتعليما للمؤمنين

وكما أنزل الله فى شأن غزوة بدر سورة الأنفال، يعلِّم فيها المؤمنين مبادئ القتال وآدابه، وما يجب عليهم عند لقاء العدو من الثبات والصبر وكثرة ذكر الله وطاعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وينبغى أن يحذروه من التنازع والخيانة والغرور

---

(١) سورة آل عمران الآيات ١٤٦-١٤٨.

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٦.

والتولِّى عند الزحف.. أنزل الله فى شأن «غزوة أحد» نحو ستين آية من سورة آل عمران، بيّن فيها للمؤمنين ما كان من أخطائهم فى تطبيق تلك المبادئ التى تعلموها، وأراهم نتيجة هذه الأخطاء رأى العين؛ ولكنه لم يتركهم فى غمرة اليأس الذى يقتل النفوس ويضعضع الحمية، بل مسح على أحزانهم فى رفق ورحمة، ومزج العتاب الرقيق بالدرس النافع، وبين لهم أن الهزيمة لا تنَال من شرف الغاية التى يقاتلون من أجلها، ولا من سمو المبادئ التى يدافعون عنها؛ فمبدؤهم هو أسمى المبادئ، وغايتهم هى أشرف الغايات، وما النصر والهزيمة إلا عارضان يتداولان الناس، وسنة من سنن الله فى الخليقة..

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويوماً نُساء يوما نُسَرّ

ثم بين لهم أن هذه الهزيمة لم تكن شرًّا يراد بهم؛ إنما كانت محنة أراد الله بها تمحيص المؤمنين المخلصين، وكشْف النقاب عن المنافقين المخادعين، وفرصة صالحة هيأها الله للمؤمنين ليتخذ منهم شهداء؛ فالشهداء هم الصفوة الخالصة التى يختارها الله من بين المجاهدين فى سبيله، ليُسبغ عليها من فضله ما يشاء.. ﴿ولا تَهِنُوا ولا تحزَنوا وأنتم الأعْلَوْن إن كُنتم مؤمنينَ * إن يمسَسْكم قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثلُه وتلك الأيامُ نُداولها بين الناس وليعلَمَ اللّهُ الذين آمنوا، ويتخذَ منكم

شهداء والله لا يحبُّ الظالمين * وليُمَحِّص اللّهُ الذين آمنوا ويمْحقَ الكافرين * أم حَسِبْتم أن تَدخُلوا الجنّةَ ولَمَّا يَعلمِ اللّهُ الذين جاهدُوا منكم ويعلمَ الصابرين * ولقَدْ كنتُم تَمَنَّوْن الموتَ من قبلِ أن تَلْقَوْه فقد رأيتُمُوه وأنتم تنظرون﴾[1].

وهكذا جعل الله، سبحانه، يواسى المؤمنين فى محنتهم، ويعزيهم فى مصيبتهم، ويكشف لهم عن نواحى العبرة فى أحداثها ومواقفها، ويحذِّرهم ألا يُسْلِموا قيادهم إلى الكفار والمنافقين، أو يستمعوا إلى أراجيفهم عن الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله؛ فَحَسْبُ الشهداء ما أعدّ الله لهم عنده من حسن الثواب : ﴿ولَئن قُتِلتم فى سبيل الله أومُتُّم لمَغْفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ مما يَجْمعون * ولئنْ مُتُّم أو قُتلتم لإلى الله تُحْشَرون﴾[2].

الشهداء لا يموتون

على أن أولئك الشهداء لم يموتوا كما يظن الذين لا يفهمون معنى الموت، ولا يدركون من الحياة إلا مظاهرها الحيوانية البَحتة؛ إنما الشهداء أحياءٌ عند رَبِّهم يُرْزقون، فَرِحين بما آتاهم

(١) سورة آل عمران الآيات ١٣٩-١٤٣.

(٢) سورة آل عمران آيتا ١٥٧ ١٥٨.

اللّهُ من فضْله، يتمنّوْن - لشدة ما وجدوا من طيب الحياة هناك - أن يعودوا إلى الدنيا ليقتلوا فى سبيل الله مرة أخرى.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «لما أُصيب إخوانُكم يومَ أُحد جعل اللّهُ أرواحهم فى أجواف طير خُضْر، تَرِدُ أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من الذهب فى ظل العرش.. فلما وجدوا طِيبَ مأكلهم ومَشربهم وحسن مَقِيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يُوهنوا فى الجهاد ولا يَنْكِلوا عن الحرب..! فقال الله تعالى: أنا أبلّغهم عنكم.. فأنزل الله هذه الآيات: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزَقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستَبْشِرون بالذين لم يَلْحقُوا بهم من خَلْفهم، ألّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنُون * يسْتبشِرُون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأنّ اللّهَ لا يُضيعُ أجرَ المؤمنين﴾[1].

(١) سورة آل عمران الآيات ١٦٩-١٧١.